مجلة اللسانيات العربية
The Arabic Linguistics Journal
مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز للتخطيط والسياسات اللغوية، الرياض، المملكة العربية السعودية
ISSN: 1658-7421
مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز للتخطيط و السياسات اللغوية
King Abdullah Bin Abdulaziz Center For Language Planning and Policies

مجلة اللسانيات العربية، العدد 14، جمادى الآخرة، 1443هـ/يناير، 2022م

دور حروف الجرّ في ترجيح مقاصد المتكلّم وتوجيه المخاطب إليها

منانة حمزة الصفاقسي
قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القيروان، القيروان، تونس

توثيق البحث APA Citation:
الصفاقسي، منانة حمزة. (2022). دور حروف الجرّ في ترجيح مقاصد المتكلّم وتوجيه المخاطب إليها. *مجلة اللسانيات العربية*، *14*، 171-190.

تاريخ الإرسال:1442/07/03
تاريخ القبول: 1442/08/18

Submission Date: 15/02/2021
Acceptance Date: 18/08/2021

الملخص

نقدم في هذا البحث مقترحا جديدا يفسّر استعمال حروف الجرّ في الكلام بعيدا عن ثنائيّة الخطأ والصواب، فنتوجّه إلى اعتبارها من الظواهر اللّغويّة التي تسهم في التعبير عن الجانب القصدي في اللّغة. ونبين أنّ استعمالها - خاصة في الحالات التي لم توثّقها المعاجم - ذو وظيفة إبداعيّة محكومة بقصديّة المتكلّم. ذلك أنّ اختيار حرف دون غيره يتأسس على عمليّة انتقاء يمارسها المتلفّظ تتلازم فيها الذات المنشئة والموضوع، فينشأ المعنى في الذهن ثمّ يتشكّل في اللّفظ محكوما بمقصد المتكلم لتوجيه المخاطب إلى ذلك المقصد حتّى تتمّ عملية التواصل وتحقّق الهدف المرجوّ منها.

الكلمات المفتاحية: قصديّة، حروف الجرّ، توجيه، ذهن،إبداع.

Abstract

This paper entitled “the role of genitive prepositions in weighting the speaker’s intention and orienting the addressee” presents a new proposal that explains the use of the genitive particles in speech, while keeping a distance from the fault and correction dichotomy. Therefore, we proceed to consider it as one of the linguistic phenomena that contribute to expressing the intentional side of language. We show that their use has a creative function governed by the speaker’s intentionality, especially in cases not documented by the dictionaries. This is because choosing a genitive particle over another is based on a selection process by the speaker in which the originating self and the subject are intertwined. The meaning thus arises in the mind and is then formed in the word governed by the speaker’s intention to orient the addressee to that intention. This proceeds until the communication process is completed and the desired goal is achieved.

Keywords: Intentionality; genitive particles; orientation; mind; creativity.

1.المقدّمة

"القصديّة" مصطلح حديث تجاذبته علوم مختلفة، فتناقلته العقول الباحثة من الظاهراتية والفلسفة إلى علم اللّغة باختلاف اتّجاهات البحث فيه. وقد ارتبط مفهومه بالبحث في نظام اشتغال العقل الإنساني من أجل إدراك العالم الخارجي وفهم ظواهره التي يتعامل معها. وتطوّرت استخداماته في البحوث التداولية لتصبح القصدية بحثا في كيفيّة اشتغال العقل في إنتاج المعاني وإعادة تشكّلها. يعني ذلك أنّ الأمر يتعلّق من جهة بالكيانات الذهنيّة اللّغويّة المجرّدة وبالمتحقّق منها في الأعيان من قول منجز

من جهة ثانية، وبذلك تكون القصدية في أحد استعمالاتها نظرا في خلفيات الاستعمال لدى المنشئ. والغاية المرجوة من هذا التوجه في الدراسة هي الوقوف على مقاصد الخطاب الجماعية تحقيقا للتواصل باعتباره أهمّ الوظائف اللغويّة؛ وذلك في الحدود التي لا تلغي حرية الإبداع الفردية التي تعدّ من أهم وظائف اللغة عند تشومسكي Chomsky (1977، ص 18).

ويبدو لنا أن التفكير المتّصل بالقصديّة قديم رغم حداثة المصطلح واحتفاء اللّسانيات حديثا به. فالقصد في اللّغة قديم قدم الظاهرة ذاتها، ولا معنى للقول إلا في اعتباره امتدادا للمقاصد التي يعبّر عنها وإن لم يكن كذلك فما الفائدة من اللغة عامّة؟ نعتقد أنّ القصديّة في علم اللّغة بما هي بحث في طريقة تشكّل المعاني قد سبقت إليها – على الأقل على سبيل سابق للنظرية العلمية بالمعنى الحديث- ما أسّست له نظريّة النظم عند الجرجاني. فكلاهما يبحث في قضايا أنساق اللغة بما هي تشكّل للمعاني انطلاقا من الذهن إلى النظام اللغوي إلى المنجز الصوتي. وكلاهما يهدف إلى تجاوز الشكل اللّغوي المتعلّق أساسا بالنّظام/ اللّسان إلى النظر في علاقة النظام بالتصوّرات الذهنيّة، أي بكيفيّة تشكّل المعاني في الخطاب. وقد اهتممنا سابقا بعلاقة الموجودات الذهنيّة بالأنظمة اللّغويّة من خلال ثنائيّة اللفظ والمعنى[1]. ولعلّ عملنا هذا يندرج في نفس المسار البحثي الّذي اخترناه ويحاول إثراءه والتوسع فيه. وبناء على ما عرفته الدراسات الحديثة في القصدية (Livet، 2002، ص 150). نحاول إعادة قراءة دور الحروف التي تتعدّى بها الأفعال التي قبلها إلى الأسماء التي بعدها؛ وذلك بربطها بعملية التواصل إنتاجا وتأويلا وتعبيرا عن العوالم الممكنة في تصور المتكلّم. ذلك أنّ الناطق يستطيع أن يستعمل أحد حروف الجرّ التي تداولتها المعاجم ولم يعترض على القول بها سائر النحاة، ولكن مقصده قد يُلجِئه إلى استعمال حرف الجرّ استعمالا طريفا لم يستقرّ في النظام. ويبدو لنا أن إمكانات الاختيار في هذه الحالات مرتبطة تماما بمقاصد الناطق المتفاعل مع الوقائع ورغبته في توجيه السامع إلى المعنى الذي يقصده.

نسعى من خلال هذا البحث للإجابة عن جملة من الإشكالات لعلّ أهمّها:

- كيف يقوّي القول بمقاصد المتكلّم جانب التفسير في عملية التواصل؟
- هل تعتبر تعدية الأفعال بحروف جرّ لم تستقرّ في الاستعمال من باب اللحن أم من باب الإبداع في اللغة؟
- هل يكفي اعتماد حرف الجرّ لتوجيه السامع إلى مقصد الناطق وأمن اللبس في عملية التواصل؟

2. دور القول بالقصديّة في تفسير عمليّة التواصل

1.2 علاقة القصد بالمفاهيم الدائرة في فلكه

تنوّعت دلالات القصد في اللغة بتنوّع سياقات استعمال اللفظ. ولعلّ أبرز معانيه في المعاجم اللغويّة "استقامة الطريق" و"الاعتماد والاتجاه نحو الشيء"(الخليل،د ت، باب (ق/ص/د)). والقَصْدُ: الاعتمادُ والأَمُّ. قَصَدَه يَقْصِدُه قَصْداً وقَصَدَ لَهُ وأَقْصَدَني إليه الأَمرُ، وَهُوَ قَصْدُكَ وقَصْدَكَ أَي تُجاهَك، (....) والقَصْدُ: إتيان الشَّيْءِ. تَقُولُ: قصَدْتُه وقصدْتُ لَهُ وقصدْتُ إليه بِمَعْنًى. وقوله تعالى" وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ[2]"، أي "على الله تبيين الطريق المستقيم". وتبيين الطريق إيضاحها والإيضاح بيان (ابن منظور ت. 711هـ، ط. 2005، مادة ق ص د).

يبرز مما سبق أنّ القصد في اللغة **وعي** سابق للفعل يوجّهه توجها لتحقيق هدف معلوم. وفي عملية التواصل باللغة يكون القصد عبارة عمّا ينوي المتكلّم إبلاغه للمخاطب ليدركه. فأن تقصد الشيء هو أن تبيّنه ليدرك، وكل إبانة هي تجربة إيضاح وتفسير للمقصد. وقد اعتبر الجرجاني (ت 816هـ، ط: د ت، ص 26) البيان "عبارة عن إظهار المتكلم المرادَ للسامع"؛ والإظهار يقتضي القصد فلا يمكن للمتكلّم أن يبين عن مقاصده دون وعي مسبق منه مهما ضعفت درجات ذلك الوعي. ومن

هذا المأتى نتبيّن علاقة الوعي بالقصد. فالوعي كما يراه علم النفس "معرفة الذات مباشرة بنشاطها النفسيّ وإدراكها لما يدور داخلها من عمليات ذهنية" (Livet ، 2002، ص 87). وفي اللغة هو الوقوف على حقيقة الشيء وفهمه: "وعَى الشَّيْءَ وَالْحَدِيثَ يَعِيه وَعْياً وأَوْعاه: حَفِظَه وفَهِمَه وقَبِلَه"(ابن منظور،2005، مادة و ع ي). ذلك يعني أنّ منشئ الكلام يختزن بداخله المقاصد التي يروم توجيه السامع إليها فهو مجهّز بالفطرة الطبيعيّة بالقدرات الكفيلة لضمان سلاسة توجيه مضمون القول قصد الإفهام و/أو التأثير في المتلقي. فالطرف الأوّل في عمليّة التواصل أي المتكلّم مزوّد طبيعيا بملكة عرفانيّة فطرية تجعله يُفْهِم المتقبّل ويوجّهه. وهذه الملكة توظّف جملة من الآليات اللغويّة المتواضع عليها بين الناطقين باللّسان الواحد، ولكنّها أيضا تضمن له فعل الاختيار والانتقاء للعبارة التي بها يُوصِل ما يقصده أو يبين عنه. من هذا المنطلق يكون القصد أقرب إلى الوعي في أجلى صوره الممكنة. فأفعال القصد Actions Intentionnelles هي أفعال قائمة بالضّرورة على الوعي متحفّزة لتحقيق هدفها الخارجيّ. وكلّ عمليّة تواصل لابدّ لها من مقصد هو غايتها الأساس؛ ويتطلّب الفعل القصدي بدوره طرفا مقصودا يراد توجيهه إلى ذلك القصد. وهذا ما يتجلّى في عمليّة الخطاب القائمة على متكلّم ومخاطب ورسالة. وتجربة القول إنّما هي توجّه للآخر قصد التواصل معه من أجل تحقيق هدف معلوم. وهي تجربة تقوم بالأساس على التوجيه.

والتوجيه في اللغة بمعنى الدفع نحو الشيء" ويقال: وَجَّهَتِ الريحُ الحصى توجيها إذا ساقته (.....) ويقال: خرج القوم فوَجَّهُوا للناس الطريقَ توجيها إذا وَطِئُوه وسَلَكوه حتى استبان أَثَرُ الطريق لمن يسلكه" (ابن منظور،2005، مادة و ج ه) فأن توجّه الآخر إلى غرضك يعني أن تزوّده بإشارات لغويّة تهديه إلى مقصدك بشكل يضمن إدراكه الحدّ الأقصى من مضمون الرسالة. نزعم عندئذ أنّ القصد يرتبط بالتوجيه ارتباطا عضويّا. ذلك أنّ التوجيه إنّما حقيقته أن يعلم المتكلّم جوانب من شخصيّة المخاطب وآراءه فيحاول بوسائل لغوية أن يحدث فيه أثرا معلوما عنده شرط أن يكون مستعدّا للتعاون معه في قبول ذلك. وإلى مثل هذا المفهوم ذهب الفلاسفة:" التوجيه هو عند أهل النظر أن يوجّه المُناظر كلامه منعا أو نقضا أو معارضة إلى كلام خصمه" (التهانوي ،د ت، ص 1523). وبذلك يكون القصد معنى يراد إيصال المخاطب إليه، وهو بالضرورة وجه من الوجوه الممكنة للرسالة، تتمّ صياغة جوانبه من خلال إكراهات الخطاب وشروطه من جهة كالسياق والقوانين اللغويّة المتواضع عليها داخل منظومة لغويّة بعينها؛ ومن جهة ثانية هو خاضع لقدرة المتكلّم على الاختيار والإبداع. فإدراك المقاصد يتطلّب التوجيه والتوجيه يطلب المعنى المراد ولا يتحقّق ذلك للمتكلّم إلا ببيان مقاصده ليدركها المتلقي.

يبدو لنا إذن أن التواصل لا يتحقق إلا في ضوء تفاعل جملة من الضوابط. ذلك أنه لا يكفي التلفّظ بالقول لتحقيق الغاية المرجوّة منه إن لم يحطه المتلفّظ بآليات كفيلة بإيصال مقصده للمتلقي. فكلّ قول يحمل من صاحبه شحنة قصديّة تحمل الهدف وتوجّه المتقبل. وإنّما يتقوّم ذلك بتوفّر مكوّنات لعلّ أهمّها: متكلّم حامل لمضامين قصدية ومخاطب يعلم عنه المتكلم ما يعلم، ورسالة تستجيب لنظام لغة من اللغات. تتضافر جميعها لتكوين المعنى المقصود تكوينا ضامنا لاستيعاب المتلقي جوهر المقصد.

2.2.البيان الجرجاني والقصديّة اللسانية

مثّل البيان مركز اهتمام في الفكر اللغوي العربي على امتداده وقد عرّفه الجاحظ (ت.255 هـ، ط. 2002، 1/ 82) بقوله: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر [...] إنما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع". فالبيان هو دفع اللّبس بغاية الإفهام، والإفهام هو مقصد المتكلّم،

ويبدو من قول الجاحظ أنّ آليات البيان متنوّعة وجوهره واحد وهو الإظهار. وهذا ما أكّده الجرجاني حين اعتبر أنّ البيان عبارة عن إظهار المتكلم المرادَ للسامع. والإظهار إفصاح، وحين يفصح المتكلّم عمّا يقصده من المعاني فإنه يكون قد أدرك البيان.

والمقاصد كامنة فينا تتشكّل داخل الأذهان ويرمي المتلفّظ بها إلى التواصل مع غيره والتعبير عن مراده. في النفس تنتظم المعاني التي تتصور منها المقاصد التي نروم التعبير عنها. وما اللفظ إلاّ قالب من قوالب تشكّلها. وقد أكّد الجرجاني (ت471هـ) ذلك:"...إنّ اللّفظ تبع للمعنى في النظم، وإنّ الكلم تترتّب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النّفس" (الجرجاني، ت. 471هـ، ط. 1992،ص55-56). فالمعنى ينشأ في الذهن في صورة تمثّل représentation قبل أن يتشكّل في اللفظ. وهذا دليل على أنّ مقاصد المتكلّم باطن يوجّه الظاهر. والخطاب صناعة يتحكّم بآلياتها المتكلّم بدرجة أولى فهو صاحب القول حامل المعنى. وبذلك يمكن القول إن البيان مشروط بمقصديّة المتكلّم الذي ينتقي من جهاز اللغة ما به يوصل معناه. وكل انتقاء يوجّهه قصد بالضّرورة. هذا التلازم بين الذات المنشئة والموضوع هو ما أطلقت عليه الفينومينولوجيا مصطلح "القصديّة". وقد اعتبر فرانز برنتانو Franz Brentano (1838-1917) أنّ القصديّة هي الضابط الذي يسمح بتمييز الظواهر النفسيّة عن الظواهر الفيزيائيّة: فكلّ ظاهرة نفسيّة قصدية بالضرورة، ذلك يعني أنّها تتضمّن شيئا مّا باعتباره موضوعا" (Wikipedia, n.d)[3]. فالاعتقاد يتطلّب موضوعا له والحب والكره وغيرهما من الظواهر النفسيّة التي تختلج داخل النفس البشريّة كلّها تتطلّب موضوعات لها. وقد أخذ إدمون هوسّرل (1859- 1938) Husserlمؤسس الفينومينولوجيا Phenomenology هذا المفهوم عن معلّمه فرانز برانتانو، فاعتبر أنّ القصديّة علاقة بين الفكر البشريّ والموضوعات الخارجيّة المدركة سواء أكانت موضوعا ماديّا فيزيائيا أو موضوعا معنويّا مجرّدا كالموضوعات التي تشتغل بها الرياضيات (The Stanford Encyclopedia of Philosophy 2013). وقد بدا مفهوم القصديّة عنده "مفتاح الفينومونولوجيا لفهم العلاقة بين الوعي والوجود بموضوعاته أو موجوداته" (وشن، 2010، ص 10)، وبذلك نتبين أنّ بين مفهوم القصديّة وعمليّة إدراك الظواهر أو الموجودات التي يتفاعل معها الإنسان تداخلا مّا. فعمليّة الإدراك هذه، آلتها في الفينومونولوجيا "القصديّة". يربط هذا المفهوم بين الوعي والموضوع، فالمواضيع تستمدّ كينونتها من وعي الذات بها، والوعي متّصل دائما بموضوع مّا. والقصديّة هي ما يربط الذات بالموضوع أو هي ما يفسّر تجربة إدراكنا للأشياء من حولنا وللمواضيع التي نتمثّلها. وما تكشفه الفينومونولوجيا هو وجوه تشكّل رؤانا للكون (Celis ، 2010 ، ص 10).

تطوّر مفهوم "القصديّة" l'intentionnalité في التفكير الفلسفي واللساني. فاعتبر التوجه اللساني الذي ترجعه بعض الدراسات إلى فرانز برنتانو أنّ مفهوم القصديّة يصلح لتحديد قدرة الذهن الإنساني على إنشاء تمثلات ذهنيّة وغير ذهنيّة لمحيطه. ذلك يعني أنّ القصديّة في علاقة بالذهن تحديدا تعتني بكشف طرق اشتغاله في تمثّل الوقائع وغيرها من الكيانات الكونية. وبهذا تصبح إشكاليّة الوعي ثانويّة مقارنة بدراسة الإجراءات القصديّة في الأنظمة العرفانيّة(Dedeurwaerdere ، 2002، ص 2)[4]. ومن هنا يبدو اتصال الوعي بالقصديّة من سمات العرفانيّة. فقد "أصبحت إشكالية الوعي تابعة لنظريّة القصديّة" (المرجع السابق، ص 732)[5]. وهذا من دلالاته أنّ القصديّة تحمل فعل القصد الموجّه لأنّها سمة عقليّة. وقد تبلور ذلك في فلسفة اللغة على يدي سيرل: " فالقصديّة هي تلك السّمة العقليّة الموجّهة إلى أو حول أو عن الموضوعات والظروف في العالم" (سيرل،2018، ص 22).

يبدو لنا أنّ القصدية باعتبارها دراسة علميّة للمقاصد لا تخلو من التعقيدات. فهي راجعة في نسبة كبيرة منها إلى أنّ المقاصد من عالم الأذهان؛ واللغة أحد أجزائها الأقوال الواصلة بين المتخاطبين؛ والموجودات المتحدّث عنها إنّما هي من عالم الأعيان. فالاشتغال بهذه العوالم المختلفة الضوابط هو مصدر التعقيد. وذلك ما يفسّر اهتمام أصناف مختلفة من العلماء والباحثين بهذا المجال من فلاسفة وعلماء نفس وفينومينولوجيين ولسانيين بمختلف فروع اللسانيات وخاصة منها التركيب

والدلالة وعلماء إخبار وعرفانيين وحاسوبيين. ولعلّ المشكلة الأساس في القصدية تتمثّل في الطموح إلى صياغة نظرية طبيعانية للمقاصد une théorie naturaliste de l'intentionnalité (Pacherie، 1995، ص 1). بعبارة أخرى: كيف يمكن وصف المقاصد كما توصف الظواهر الطبيعية والحال أنها ليست ظاهرة بالمعنى المألوف، وإنّما هي " قانون يسيّر تأويلنا للسلوك بين الأشخاص" (المرجع السابق) [6]. ومثل هذه المهمة ممّا يحتاج إلى تضافر جهود اختصاصات مختلفة. وإذا جزمنا بوجود المقاصد في الأذهان فإنّ العقبة الكبرى بالنسبة إلى اللسانيين هي الاهتداء إلى الخطوات التي تقطعها المقاصد لتصبح كلاما يقول التجربة على النحو الذي يريده المتكلّم مناسبا للغرض. وذلك يعني بالضرورة إيجاد علاقات قابلة للوصف بين المستوى الذهنيّ والمستوى المادي بفرعيه اللغوي والظاهراتي. وقد حُلّت بعض جوانب هذه المعضلة على مراحل يتعذّر تفصيل القول فيها في هذا البحث. وربما أشرنا إلى أنّ المدرسة التوليدية قدّمت مساهمة كبيرة في هذا المجال حين اعتبر تشومسكي منذ 1975 أنّ اللغة عضو ذهنيّ(Chomsky، 1977، ص 40). فذلك ممّا شرّع فيما بعد لربط المقاصد بالكلام عن طريق إثبات وجود علاقات قابلة للوصف بين الدلالة والتركيب، ومهّد الطريق للعرفانية حتى تدرس التمثلات الذهنية representations mentales وما جرى مجراها من وصف للعمليات الذهنية.

3.2. الحركة القصدية بين الذهن والعالم الخارجي ودورها في تفسير إنتاج المعنى المقصود

مثّلت علاقة اللغة بالعالم الخارجي عقبة بالنسبة إلى دارسي اللغة. ولم يقتصر النظر فيها على اللسانيين، وإنما أسهم فيها بعض فلاسفة اللغة مثل أستين Austin وغرايس Grice وسيرل Searle، فضلا عن آخرين من مجالات معرفية أخرى اهتمّت بقضايا اللغة. والجدير بالذكر هو أنهم قدّموا وجهات نظر في المسألة تختلف باختلاف مشاغلهم. ففي حين يؤكّد تشومسكي 2006 أنّ اللغة جهاز مغلق على ذاته ويرى أنّ أبنية اللغة مهيّأة لتسمح بحوسبة تتماشى مع النظام العرفاني، لكنها ليست جاهزة مسبقا لعملية التواصل(Chomsky ، 2006). ذهب التداوليّون إلى ضرورة التمييز بين أبنية اللغة من ناحية ووجوه استعمالها من ناحية أخرى. ورأى غرايس على وجه التحديد أنّ "المعاني المستفادة من استعمال اللغات الطبيعيّة لا طبيعيّة -non naturelle؛ فهي تتقوّم بالاعتراف لا فقط بقصد الإخبار عند المتكلّم، بل بقصده التواصل" (نقلا عن Moeschler، 2008، ص 2). وقد أحدث غرايس تحوّلا هامّا في الدراسات اللغوية، وعُدّ مؤسسا لنظرية تفسّر استعمال اللغة وتربطه بمفهوم الاستلزام Implicature ومبدأ التعاون Principe de coopération وما يتفرّع عنه من حكم Maximes (نقلا عن روبول وموشلر،2010، ص211-219). ويمكن إجمال القول في التحوّل الذي أحدثه التداوليّون في الدراسات اللغوية في أنهم على حدّ عبارة محمّد صلاح الدين الشريف " يعتبرون المقام اللغوي في مقابل اهتمام الدراسات السابقة بالنظام اللغوي وينظرون في القول بعد أن كان النظر اللغوي يبحث عن الجهاز المختفي وراء القول" (الشريف،1986، ص 95). ومن هنا نتبيّن أنّ دراسة مقاصد المتكلّم مشروطة بعدّة ضوابط لعلّ أهمّها علاقة التعاون التي تربط بين المتكلم والمخاطب وسياق التواصل بينهما والقول المنتج عند التواصل بما في ذلك من الوجوه المستلزمة للقول.

يذهب سيرل من ناحيته إلى اعتبار "القصديّة" ظاهرة بيولوجيّة "والقصديّة هي، قبل كل شيء ظاهرة بيولوجيّة مشتركة بين البشر وبعض الحيوانات الأخرى." (سيرل، 2018، ص 43). والبيولوجيا هي علم يهتمّ بدراسة كيفيّة تفاعل الكائنات الحيّة مع البيئة المحيطة بها وفيما بينها، ومن هنا تكون القصديّة نظرا في جملة من الأفعال التي يمارسها الكائن الحيّ قصد التعبير عن حاجاته ليتفاعل مع المحيط الخارجي. وتكون هذه الحاجات بطبيعة الحال من ضروب مختلفة كالجوع والعطش أو الحب والكره أو الإيمان. هذه العمليّة القصديّة يتطلّب تحقّقها الفعليّ في الكون الخارجي تصوّرا أوّليا ذهنيّا فالفرد منّا لا يطلب الأكل للتعبير عن جوعه مثلا إلاّ إذا شعر بهذه الرغبة في داخله ووجّهت وظائفه البيولوجية تنبيها للمركز الخاص برغبة الجوع

في الدماغ. ويعني ذلك أنّ فعل طلب الأكل يتمثّله العقل قبل أن يظهر سلوكا لغويّا خارجيّا. بهذا تكون الأفعال القصديّة ذهنيّة أوّلا." تنتج جميع الحالات القصديّة، دون استثناء، عن عمليّات دماغيّة، ويتمّ إدراكها في الدّماغ" (سيرل،2018، ص 43). عندئذ لا تكون الموضوعات الخارجيّة الموجودة في البيئة المحيطة بالإنسان إلاّ صورا، وما يدرك منها هو ما يتمثّله الذهن. ولا يطابق التمثّل الذهني لها مطابقة تامّة للموجود العيني بالضّرورة. فالموضوع "طاولة" مثلا في العالم الخارجي متنوّع بأحجام وموادّ مختلفة، ولكنّه في الذهن تقريبا واحد. وهو مضمون لموضوع موجود في العالم الخارجي. وتمثّلنا الذهنيّ للطاولة يكون متشابها في خطوطه العريضة وهو ما يحقّق التواصل بيننا في شأنه عند التواصل به لفظا.

لا تمثّل الموضوعات الخارجيّة الموجودة بالفعل بمفردها موضوعا للفعل القصديّ. فقد لا يكون للقصد موضوع خارجيّ فيزيائي متحقّق فعليّا، بل يمثّله مضمون معيّن يتشكّل داخل الذهن (Dreyfus، 1993، ص 289)[7]، دون أن يكون له وجود ماديّ في الخارج. ذلك أنّ عمليّة إدراك الموجودات الفيزيائية مشتركة بين أفراد الجنس البشريّ مهما اختلفت ألسنتهم. ومن أهمّ وظائف اللغة التعبير عن مدركاتنا. وهذا ما يجعلها من أنجع أدوات التواصل. لكن المجموعات اللسانيّة يختلف بعضها عن بعض في إنشاء تصوّرات لها علاقة باختلاف الثقافات في التعامل مع الواقع. فيعتقد البعض أن الغول أو العنقاء أو السعلاة موجودة وينشئون لها تصوّرات ذهنيّة يبنون أجزاء منها من الواقع في الغالب دون أن توجد كلّها وجودا فيزيائيا. ومن مزايا اللغة أنّها تمكّن الأفراد من التواصل بموضوعات سواء أكانت موجودة فيزيائيا أو غير موجودة. وذلك لا يتحصّل إلا إذا تمّ التواضع بين أفراد المجموعة على تسمية هذه الموضوعات. فإذا تمّ لهم ذلك وقع تخزينه في الذاكرة وأصبح ممّا يمكن اعتماده في المقاصد. وبسبب من ذلك يمكن لنا أن نعتبر مفهوم القصديّة نظرا في كيفيّة تشكّل عمليّات المدركات داخل الفكر الإنساني. فكيف تشتغل الأذهان في تمثّل الكون وإدراكه وكيف تعيد إنتاجه قصد التواصل؟

نرجّح أنّ القصد مرحلة من المراحل في عمليّة الإدراك وإنتاج المعنى. وهو على صلة بالخلايا العصبيّة والنفسيّة واللغويّة المتمركزة داخل الدماغ. وهو القادح الذي يحفّز المتكلّم لينتقي جملة من الوسائط اللغويّة لتبليغ معنى يريده. وهو من أنشطة الفرد المسيّر ضمن إكراهات القوانين اللغويّة وسياقات القول. فلا وجود في اللغات الطبيعية لقول لا يحمل مضامين قصديّة للمتكلم ولا معنى لقصديّة المتكلم إلا ضمن سياق التفاعل مع المخاطب المتعاون. بهذا المعنى تتحقّق الوظيفة الأساسيّة للغة وهي التواصل.

يبدو القصد من حيث هو تمثّل للوقائع الخارجيّة فعلا مضمرا متخفّيا داخل الأذهان. ولكن بمجرّد أن تتمّ عمليّة الانتقاء للأشكال اللّغويّة الممكنة من قبل المتكلّم يبارح المقصود مكمنه ليوجّه المخاطب إلى مضامينه التي تتشكّل في صورة معان متحقّقة في القول ومستلزماته. وبناء عليه تكون القصديّة ذات صبغة حركيّة، منطلقها ذهن المتكلّم ومنتهاها ذهن المخاطب. فإن لم يبلغ مقصد المتكلّم ذهن المخاطب فذلك يعني أنّ خللا طرأ على فعل القصد، وأنّ المتكلّم لم ينجح في توجيه المخاطب إلى غايته من القول إمّا بسوء توظيف للفظ المستعمل في أحد مستويات اللغة صوتا أو صرفا أو تركيبا أو معجما، أو لأنّ سياق القول غائب عن ذهن المخاطب، أو لرفضه التعاون في عملية التواصل، أو لما يجري مجرى ذلك من الأسباب. وذلك يعني أنّ الجانب اللغويّ حاضر بقوّة في القصديّة. فالقوانين اللغوية والألفاظ المستعملة تشكّل الجزء الأكبر من مقاصد المتكلّم. وبها يستنير المخاطب المتعاون ليدرك المضمون الموجّه إليه؛ وكلّ سوء اختيار للفظ يؤثّر في المعنى المقصود إمّا في اتجاه الافتقار وإمّا في اتجاه الزيادة عن المطلوب وفي كلتا الحالتين انزياح عن حقيقة المضمون: «سنرى ... أنّ الخصوصيات الدلاليّة للألفاظ الواصفة لوضعيات قصديّة، ترجع بطبيعتها إلى وضعيّات ماصدقيّة، وداخل هذه الدقائق ليس دائما بالإمكان تعويضُ لفظ بآخر له حقيقة معنويّة واحدة دون تغيير القيمة الماصدقيّة للفظ ذاته"(Panaccio، 1981، ص 243)[8]. إنّ مسألة مطابقة

معنى اللفظ للمقصد دقيقة إلى درجة أنه يصعب في بعض الوضعيات القصديّة أن يؤدّي لفظان نفس المعنى بكلّ صرامة ودقّة. ومن هذا المأتى تكون عمليّة انتقاء الألفاظ موجّهة، ويكون التوجيه من مقتضيات القصديّة باعتبار أنّ من شروطها تمامَ المطابقة بين المقصد واللفظ المعبّر عنه. فمجانبة الصّواب في اختيار حرف الجرّ المعبّر عن المعنى المقصود تفضي إلى فشل الفعل العلامي كأن تقول: " دعوتُ عليه" وأنت تقصد " دعوتُ له".

إنّ نشوء المعاني في الأذهان وتبلور حالة الوعي أو الإدراك للمواضيع داخل الدماغ البشري ممّا يفسّر اعتبار جوهر القصديّة عمليّات دماغيّة تحدث داخل الذهن ولكنّها أيضا غيريّة لأنّ القصد غير متعال عن المواضيع المدركة بالعقل والواقعة خارجه. هذا ما يجعل القصديّة في تقديرنا حركة بين الذهن والعالم الخارجي. هذه الحركة غايتها الفهم والإفهام وهما من الأدوار اللغويّة بالأساس. لهذا يعتبر اللفظ أصلا في تحقّق الفعل القصدي. فهو حامل للمعنى المتشكلّ داخل الذهن والّذي لا تدرك قيمته إلا بتحقّقه فعلا منجزا مُفْهِما يضمن التواصل بظاهر لفظه وبما يستلزمه ذلك اللفظ من مؤوَّل القول، وذلك دور اللغة باعتبارها ألفاظا حاملة للمعاني المقصديّة.

4.2. التشكّل اللّساني كساء للمقاصد يضمَن التواصل بين مستعملي اللّغة: مثال حروف الجرّ

اعتبرت ألفاظ اللغة علاماتها الدالة على معانيها قديما. فقسّم الكلم في التراث النحوي العربي إلى ثلاثة أقسام اسم وفعل وحرف واختزلت هذه الأقسام كلّ معاني اللغة المتحقّقة بالنظام التركيبي المسيِّر الذي تأتلف ضمنه هذه الوحدات: "الكَلِم: اسمٌ، وفِعْلٌ، وحَرْفٌ جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل" (سيبويه، 1982، 12/1). فالوحدات اللغويّة ناقلة لجزء ممّا يتأسس بالذهن من معانيَ قصد تبليغها للتواصل. والوحدات النحويّة باعتبارها روابط بين الوحدات المعجمية تتكفّل بنسيج العلاقات التي بين معاني المفردات والتراكيب. لكنّ الإنسان لا يتواصل بمخزونه الفكريّ الذهنيّ وهو في طور الكمون بل به متحقّقا باللّفظ الذي يؤديه. فيستدعي المعنى اللفظ ليتحقّق الفهم والإفهام.

بيّنت اللسانيات الحديثة أنّ اللغة نظام من المستويات المترتبة ترتيبا هرميّا، تكتسب فيه العلامة اللغويّة قيمتها من داخل النظام اللّساني الذي تنتمي إليه. ويكون هذا ""النظام" مجالا يشدّ الوحدات اللّسانيّة بعضها إلى بعض بصورة تكسب كلّ واحدة منها قيمة تتحدّد بالرجوع إلى الوحدات الأخرى" (بن حمودة، 2004،ص 82). والنظام اللغوي للسان مّا هو الذي يكسب هذه الوحدات اللّغويّة قيمتها فتتحقّق الإفادة بفضل العلاقات القائمة بين الوحدات سواء أكانت تقابلية أو خلافية، سياقية أو جدوليّة.

هذا النظام هو "اللّسان" langue كما اصطلح عليه دي سوسير باعتباره الجانب النّظامي الجماعي المشترك الخاضع للدراسة العلميّة من الظاهرة اللّغويّة. وهو جملة القوانين أو القواعد الخاصة بلسان مّا والتي تستلهم منها فرضيات تصاغ في مجموعة من المبادئ العامّة الكليّة الكونيّة المميّزة للظاهرة اللغويّة. مثال ذلك أن يكون الإعراب في العربيّة بعلامات تلحق أواخر الكلمات دالة عليه؛ ويكون في ألسن أخرى بعلامات أخرى مغايرة كاعتبار الموقع التركيبي للمفردة (الصفاقسي، 2016، ص 322). فيختصّ كل لسان بقوانين إعرابيّة تميّزه ولكنّ المقولة عامة واحدة وهي مقولة الحالة الإعرابيّة le Cas grammatical، ويلمسلاف من بين الّذين اعتبروا مقولة الحالة الإعرابية كونيّة (Hjelmslev، 1935). فاختلاف القوانين اللّغويّة من لسان إلى آخر صفحة بينية interface تحجب خاصيّة بشريّة كلّيّة قوامها ملكة معالجة موضوعات الكون في الأذهان. لكنّه يضمن خصوصيّة كلّ لسان في التعبير عن تلك الموضوعات المشتركة بين البشر، إنّ "الألفاظ الواسمة والأشكال المجرّدة منها مهما تشابهت فإنّها تظلّ من الوجوه الّتي يختلف بها لسان عن لسان أو مجموعة من ألسنة متقاربة عن مجموعة أخرى غيرها، أمّا المعاني – إذا قصد بها التصوّرات الذهنيّة – فليس مستبعدا، مادام الذهن مكمنها، أن تكون مشتركة على الحقيقة بين البشر"

(بن حمودة،2004، ص159). نعتقد أنّ ذلك المشترك الذهني أيّا كانت تسميته "ملكة عرفانيّة" كما سمّاه تشومسكي أو تمثّلات/ خطاطات ذهنيّة كما وسمه بعض العرفانيين في اللسانيات الحديثة (Stéphane ، 2002، ص 76-77)[9]، أو هو، كما جاء عند الجرجاني (1992، ص 49)، " ترتب المعاني في النفس"، أي هو المجال المتحكّم في عمليّة إنتاج المعاني. ولكنّ هذه العمليّة لا تؤدّي وظيفتها إلاّ عندما تتحقّق منجزا لفظيّا واصلا تفاعليا بين المتكلّم والمخاطب. فلا معنى للمعاني الكامنة في النفوس لأنّها لا تؤدّي دورا اجتماعيّا يقتضيه المحيط الذي يحتضن الفرد، وهو التواصل، فالمقاصد تنشأ في الذهن ثمّ تتشكّل أبنية لغويّة وما القول باعتباره منجزا صوتيا إلا اللباس الذي تظهر به المعاني المقصودة. لكنّ هذا الجانب النظاميّ من الظاهرة اللغوية، رغم أهميته وانتشاره في كل الألسنة فإنه غير قادر بمفرده على تفسير مستلزمات القول الفرديّ الإبداعيّ ومتضمّناته التواصلية، وقد سبق أن وقفنا على بعض الحلول التي قدّمها التداوليون لتجاوز هذه الصعوبة.

خاصيّة الإبداع مشتركة بين كل مستعملي اللغة، تظهر في قدرتهم على إنتاج أقوال لم يسمعوها. لكنّ تحققها يكون بوجوه من الكلام فرديّة. فالمنشئ ينتقي ما يراه مناسبا من الألفاظ والتراكيب لتأدية المعنى المقصود من الوحدات المعجمية المتاحة والتراكيب النحويّة أو الصيغ الصرفيّة المتاحة. وهنا يبرز القصد الذي يضمن النظام اللغوي محتواه. فكلّ انتقاء هو توجيه لقصد يعكس تنظيما ذهنيّا معيّنا للمضمون تؤديه علامات اللغة وأبنيتها "بهذا نفسّر اختلاف الأفراد في التعبير عن الحدث الواحد أو حتّى اختلاف ضروب العبارة التي يصوغها المتكلّم الواحد تعبيرا عن معان متقاربة يحكمها مضمون دلالي واحد" (الصفاقسي، 2015، ص 104). هكذا تبدو لنا وحدات اللغة على اختلاف مستوياتها في النظام اللغوي أدوات تمكّن الإنسان من التعبير عن مقاصده تعبيرا إبداعيا. ولم نعرف وسيلة لتأدية المعنى أنجع من الظاهرة اللغويّة الطبيعية. فأيّا كانت قصديّة المتكلّم فإنّه يجد نفسه مضطرّا لاستعمال وحدات اللغة بمختلف أصنافها لأداء مكنوناته الدلاليّة الذهنيّة ليتواصل مع الآخر. وقد اخترنا أن نشتغل بحروف الجرّ في هذا البحث لإبراز دورها القصدي في عمليّة إنتاج المعاني وتأويلها. فنحن نعتقد أنّ هذه الحروف –وهي ليست الوحيدة- لها دور إفادي فارق في عمليّة التواصل. فلا يمكن أن يكون وجودها واستبدال بعضها ببعض شكليّا صرفا في نظام اللّغة؛ ونعتقد أنّ تعدّد وجوه استعمالها حامل لدلالة تترجمها دقائق معنويّة إبداعية تختلف بها الواحدة عن الأخرى. فإذا انطلقنا من أن تعدية الفعل بالحرف عملية تتركب فيها كلمتان تقبل الثانية منهما الاستبدال في ضوء اختيار من المتكلّم، أمكن لنا أن نعتبر اختلاف حروف الجرّ المستعملة في تعدية نفس الفعل تعبيرا عن مقاصد تختلف من استعمال إلى آخر. وذلك كما في قولنا:

- انشغلتُ بك. (المخاطب هنا هو موضوع الانشغال وسببه. لكن لا شيء يدلّ على وضعيته)
- انشغلت عليك. (المخاطب هو موضوع الانشغال. لكن المتكلم يشعر بقلق سببه إحساسه أن المخاطب في ما يشبه الورطة)
- انشغلت عنك. (المخاطب ليس موضوعا لانشغال المتكلم. بل إنّ شيئا آخر جعله يصرف اهتمامه عنه)

يمكن أن ننظر إلى الفعل وحرف الجرّ مقترنين على أساس أنه منهما تتشكل وحدة معجمية. لكننا نعالج الظاهرة بفرضية أن الفعل وحرف الجر الذي يتعدّى به وحدتان لسانيتان بينهما علاقة تركيبية، وأساس ذلك أنّ المتكلم قادر على الاختيار بينهما جدوليًّا. فقد تعدّى الفعل نفسه في الأمثلة الثلاثة إلى ضمير المخاطب بحرف جرّ. لكنّ المعنى الحاصل من كلّ جملة اختلف باختلاف حرف الجرّ وباختلاف ما قصده المتكلّم وما حفّت بعملية إنتاج القول من ملابسات أشرنا إليها في كل

حالة بعد المثال مباشرة. وقد حوّر الحرف معنى الفعل حسب ما اقتضاه مقصد المتكلّم. ولم يتمّ ذلك إلّا لتوجيه المتقبل إلى مقصد دون غيره من المقاصد التي بيّنّا تفاصيلها أعلاه.

في سياقات أخرى اعتُبرت اختلافات حروف الجرّ المستعملة مع نفس الفعل مفيدة للمعنى ذاته. فإلى أيّ مدى يمكننا الوثوق بهذا التماهي المعنوي؟ جاء في بعض المعاجم في مادة(ب/ر/ك) بارك الله الشيءَ وبارك فيه وعليه: وضع فيه البرَكَةَ (ابن منظور، 2005، مادة ب ر ك). ولو اعتبرنا جدلا أنّ المعنى متطابق تمام المطابقة في المثال السابق لوقعنا في إشكال يناقض أهمّ سمات اللّغة وهي قيامها على جملة من القوانين التي تضمن نظاميّة الظاهرة:" التسوية(...) بحرفي جرّ مختلفين في الحالتين يجعلنا نذهب إلى أنّ أمر استعمال اللّغة إمّا أن يكون فوضى فلا يسيّره حكم أو قانون (...) وإمّا أنّه محكوم بقانون فضفاض إلى درجة أن تتساوى أبنية(...) مجرّدة للدّلالة على معنى واحد" (بن حمودة، 2018،ص199). والقول بأنّ اللّغة ظاهرة غير نظاميّة مردود لأنّ ذلك يحدّ من نجاعتها ويلغي ضمان وظيفتها الأساسية وهي التواصل، لذلك نرجّح أن تكون بين هذه الاستعمالات فروق مهما صغرت فهي موجودة، وأنّ الأمر إذا تساوى بين استعمال حرفين أو أكثر للدلالة على ذات المعنى له ما يفسّره في نظام اللّغة.

3. دور حروف الجرّ في ترجيح مقاصد المتكلّم وتوجيه المخاطب إليها

1.3. الوجوه التي تناول من خلالها القدامى مسألة حروف الجرّ

أرجع التراث النحوي هذا الصنف من الوحدات اللغوية إلى قسم الحروف من أقسام الكلم. فهي وحدات لغويّة لا معنى لها في ذاتها، وإنما يتحدّد معناها بتعليقها على غيرها من الوحدات اللغويّة المتعلّقة بها: "الحرف ما دلّ على معنى في غيره. ولم ينفكّ من اسم أو فعل يصحبه." (ابن يعيش،د ت، ج8،ص2). وأطلق النحاة عليها مصطلح حروف المعاني لما تحدثه من جديد الدلالة على ما تدخل عليه من الكلم سواء كان من الأسماء أو الأفعال أو المركبات: " وأمّا حدّ حروف المعاني وهو الذي يلتمسه النحويّون فهو أن يقال الحرف ما دلّ على معنى في غيره، نحو من وإلى وثمّ وما أشبه ذلك" (الزجاجي،1982، ص 54). وقد اقتضى تناسق النظرية النحوية أن يحاول النحاة تبرير ما تؤديه من المعاني، فتوجّهوا " في تحديد معانيها إلى اعتماد السّياق اللّغوي، فهي من الكلم الّتي يكون معناها في غيرها لا في نفسها، خلافا للاسم والفعل" (بن حمودة، 2018، ص194). وضمن هذا الصنف تختصّ حروف الجرّ بدخولها على الأسماء فتعمل فيها الجرّ. فهي أدوات يتعدّى بها صنف من الأفعال القاصرة عن التعدية بذاتها فتغيّر من معانيها. ويبدو أنّ قصور الحروف عامّة وحروف الجرّ خاصّة على تأدية معنى في ذاتها وارتباطها بغيرها من الوحدات اللّغويّة المتعلّقة بها في سياق لغويّ مخصوص ممّا جعلها موطن إشكال في الدراسات اللّغويّة. وقد يعود ذلك أيضا إلى أنّها "وحدات تنتمي إلى المتحقّق من الكلام لكن فيها من التجريد ما يجعلها إلى نظام اللّسان راجعة. فهي غير مشتقّة وغير متصرّفة وقائمتها مغلقة خلافا للوحدات الاسميّة والفعليّة الصّريحة" (المرجع السابق). والجانب المجرّد منها يفسّر بعض اختلافات النحاة في بيان معانيها. وكونها بين المحسوس المنجز والمجرّد الذهني زاد من صعوبة تفسير نظام اشتغالها في اللّسان العربي؛ وهو ما قد يفسّر تعدّد زوايا النّظر إليها: "ولعلّ وجوه التعقيد والتّداخل الّتي في حروف الجرّ ممّا يفسّر تعدّد جوانب تناولها عند القدماء.

ويمكن أن نختزل هذه الجوانب في أربعة: جانب تركيبيّ محض وثان تركيبي معجميّ وثالث معجمي محض ورابع تصحيحي" (المرجع السابق، ص11). يبدو من المصنّفات النحويّة العربيّة أنّ حروف الجرّ قد وسمت من منطلق دورها التركيبي فنجدها في المواضع التي تحدّث فيها النحاة عن معنى الإضافة أو في قسم العامل في الأسماء عمل الجرّ. وهذا يبين عن دور حروف الجرّ في تعلّقها بالأسماء داخل البناء التركيبي. وهو أمر متجانس مع تعريف الوحدات الحرفيّة بحكم أنّ معناها في غيرها. فابن

السرّاج تحدّث عنها في باب العوامل النحويّة من الجزء الأوّل من كتابه "الأصول في النحو". وقد وُصِل مفهوم العامل النحوي بإحداث أثر فيما بعده، وقد يكون هذا الصنف من التغيير المعنوي النحوي التركيبي هو الذي جعل حرف الجرّ أكثر من مجرّد حرف يصل فعلا باسم. فنحن نعتقد أنّ هذا الدور الدّلالي للحروف، ذلك الذي يظهر في المستوى التركيبي المتحقّق هو في الحقيقة دور تتحقّق به وجوه من مقاصد الأذهان، بحكم أنّ المعاني النحويّة هي معان على درجة عالية من التجريد تسمح باختزال المتعدّد في مبادئ عامّة أكثر نجاعة في وصف اللّغة وتفسير نظام اشتغالها. وحروف الجرّ في جزء منها هي من هذا الصنف. فهي عوامل لفظيّة ذات صبغة دلاليّة وذلك يتنزّل في تقديرنا ضمن المفهوم الخاص بالعامل النحوي عموما. فالعمل كما وصفه الأستاذ صلاح الدين الشريف في حقيقته "حركة بنيويّة نحويّة إعرابيّة دلاليّة خالصة" (الشريف، 2002، ص796). هذا يجعلنا نقف على مدى أهميّة بعض الحروف وحروف الجرّ منها في تحديد الدلالة اللغوية والتوجيه إلى أحد المعاني الإبداعية التداولية.

إضافة إلى الجانب التركيبي الّذي اهتمّ به القدماء في دراستهم لحروف الجرّ نجدهم أيضا وقفوا على الوجهين التركيبي والمعجمي لبعض هذه الحروف. ويظهر ذلك في مستوى تحديد دلالتها فهي لا تفيد معنى في ذاتها وتحتاج إلى ما به تعلّقت لتفسّر. فإن كان التناول التركيبي لها يبرز قوّتها النحويّة الدلاليّة في التركيب، وهي الّتي أُجملت في معنى الإضافة وعمل الجرّ، فإنّ ذلك لم يفصل فصلا صارما بين معانيها المختلفة؛ ودليلنا على ذلك كثرة استعمال بعض منها موضع البعض الآخر حتّى إنّ النحاة ابتدعوا مفهومين لحلّ الإشكال هما "التضمين" و"أمّ الباب". "فلا يعوّض حرف حرفا إلاّ إذا كان من المجموعة نفسها وتضمّن المعنى الأصلي لأمّ الباب. وحتّى إذا ما تجاوزنا الخلاف بين النحاة في هذا الشأن يظلّ المفهومان غير قادرين على تفسير اشتغال كثرة المتغيّرات في التعدية بحروف الجرّ" (بن حمودة، 2018، ص195). ويبدو أنّ تحديد معان صارمة تفصل بين الحرف والآخر في استعماله كان حلقة مفقودة في التراث النحوي العربي. ويؤكّد ذلك وجود مصنفات لغويّة خاضت في مسألة تبادل حروف الجر المواقع من التركيب كمغني اللّبيب لابن هشام (ت 761 ه). وقد أثبت المالقي (702 ه) في كتاب رصف المباني "سبعة عشر مدخلا لتبادل الحروف والأدوات المواقع في الاستعمال" (نقلا عن بن حمودة، 2018، ص196). هذه الظاهرة تثبت في تقديرنا عدم الفصل فصلا جازما صارما بين معنى الحرف ومعنى حرف غيره خاصّة إذا كانا من مجموعة واحدة بينها جوامع مشتركة. ونحن لا نعتقد أنّ ذلك اعتباطيّ في اللسان العربي، بل له أسباب منها ما يرجع إلى استعمالات لهجية وعادات اجتماعية كما في:

- هلا بك / هلا فيك

وله أيضا دلالات تتعلّق في تقديرنا بباب الثراء اللّغوي في التعبير عن المعاني. وذهب بن حمودة إلى أنّ وقوع الحرف موقع الحرف في هندسة الجملة وإفادة معناه " لا يتعلّق بضرب من الترادف التّام لأنّ اللّغة ظاهرة طبيعيّة ترفض المعاودة، معاودة التماثل التّام" (المرجع السابق). وهذا منطقي لأنّ التماثل التّام في اللّغة يحدّ من سلامة معالجتها للخارج. وقد اهتمّ القدامى بجانب تدقيقيّ في استعمال حروف الجرّ يندرج ضمن ما سميّ بظاهرة التصحيح اللّغوي عامةً فيما اعتبر لحنا في اللسان العربي. وقد بيّن بن حمودة أنّ اعتبار الخطأ في استعمال حرف الجرّ في التراث النحوي كان في حالات محدودة العدد. فلا نجد إلا مثالين في أوّل كتب اللّحن، وهو " ما تلحن فيه العامّة" للكسائي (المرجع السابق، ص194). وأضاف إليهما بعد أربعة قرون ابن الجوزي مثالين آخرين؛ واعتبر " أنّ هذه الحالات المذكورة لا تخرج عن صور الحذف والزيادة والاستبدال، لكنّها حالات قليلة نادرة لم تزد في ظرف أربعة قرون إلاّ بمثالين" (المرجع السابق). ويبدو أنّ القول بالخطأ في استعمال حرف الجرّ ضعيف وذاك ما يفسّر في اعتقادنا اختلاف النحاة القدامى في تناول الظاهرة. وقد جعلهم ذلك يبحثون عن حلول أخرى لمشكل اتّساع استعمال حروف

الجرّ بعضها مواقع البعض. فلم يعتبروا ذلك من باب الخطأ اللّغوي في المطلق. وذلك خلافا للتفكير النحوي الحديث الذي توجه وجهة تقعيدية، فاعتبر كل استعمال يخرج عمّا جاء من وجوه الاستعمال في عصور الفصاحة لحنا يقتضي التصويب.

إذا ما اعتمدنا التمييز الذي يرجع الفضل في القول به إلى دي سوسير مؤسس اللسانيات الحديثة بين مفهوم الكلام parole بوصفه المنجز الفردي المتعدّد والإبداعي وبين مفهوم اللّسان langue الجماعي المحدود بجملة من القوانين المضبوطة، تبيّنت لنا أهميّة ما ذهب إليه النحو العربي القديم من امتناع عن الإجماع في القول بالخطأ في استعمال حروف الجرّ. ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى خاصيّة التجدّد في اللّغة بوصفها جهازا متطوّرا تطوّر الأنساق التاريخيّة الزمنيّة. وهذا ممّا يرجّح أنّ "استعمال حروف الجرّ استعمالا غير معهود ومحكوم بمقصد فرديّ يمكن أن يرجع إلى خاصيّة الإبداع في اللّغة" (المرجع السابق، ص201). ونحن نعتقد أنّ لهذا دلالات هامّة ومخصوصة. فالمنجز اللّغوي أي الكلام هو في الحقيقة منتج فرديّ خاضع لقوانين لسان مّا ولكن في الجانب الآخر منه هو فسحة الفرد في التعبير عن ذاته ودلالاته فلا شيء يمنع من تعدّد الاستعمال وتباينه (المسعدي، 1992)[10]. فمقاصد القول مختلفة مهما تقاربت؛ ودور اللّغة أن تعبّر ألفاظها عن الفروق بين المقاصد مهما كانت دقيقة. وهذا ما يفسّر مثلا استعمالنا لتعدية فعل "هام" بحرفين مختلفين فنقول:

- هام بحبّ الوطن.
- هام في حبّ الوطن.

فالمثال الأوّل يفيد أنّ المتلفّظ أراد التعبير عن معنى السببية فاستعمل الباء للتصريح بالذي كان سببا في الحالة النفسية المعبّر عنها. والثاني يفيد أنّ المتلفّظ أراد التعبير عن الظرفية، فكأنّ حبّ الوطن أصبح وعاء يستوعب كلّ مشاعر المتلفّظ؛ وهذه عبارة عن مقصد أكثر قوّة من الأول. فالبنية "هام بـ..." لا تمنع وجود أخرى باستعمال حرف جرّ آخر موضع الباء للدلالة على جزئيّة معنويّة دقيقة مختلفة. وهذا في اعتقادنا دليل على أن ألفاظ حروف الجرّ من الأدوات القادرة على المساهمة في التعبير عن الجانب القصدي في اللغة. وهذا التوجه في القول بوظيفتها الإبداعية لم يكن صريحا في التفكير النحوي – في حدود علمنا- وتوجّه التفكير النحوي العربي الحديث إلى عدم الاعتراف به واعتباره من باب اللحن.

2.3. الجانب القصدي لحروف الجرّ مسكوت عنه في الدراسات اللغويّة

تؤسس حركة التصحيح اللغوي لامتلاك الحقيقية اللّغويّة وتقييد اللّغة بقوانين صارمة لا تقبل وجها من التجديد أيّا كان ما دام لا ينضوي ضمن القاعدة العامّة رغم أنّ القواعد يعتمد في استخراجها على الاستقراء الناقص للظاهرة اللغويّة. فهي تعتمد مفهوم المدونة التي مهما اتسعت تظل غير قادرة على استيعاب كل وجوه الاستعمال، فضلا عن كون اللغة ليست تقتصر على الموجود المتحقق، وإنما هي ملكة توفّر لمستعملها القدرة على قول ما لم يُقَل والتعبير عمّا يُستحدث من المقاصد والأغراض: "نشاط تصحيح الأخطاء يحاول وصف جانب واحد فرعيّ من الاستعمال، هو ما شذّ في قراءة المصحّح عن القواعد، وهو يعتمد في أغلب الأحيان قراءة ذوقيّة وشبه ذاتيّة لجزء معزول من نظام اللّغة ولذلك يكون الحكم بالتخطئة ومقترح التصويب كلاهما قابلين للنّقاش، لا موضوع اتّفاق بين المصحّحين في كثير من الاستعمالات" (بن حمودة، 2018، ص185). ويبدو لنا أنّ ما اعتبر من الأخطاء في اللغة فيما تعلّق بحروف الجرّ ممّا يُثْبِت مبدأ قصديّة المنشئ في المفاضلة بين حرف جرّ وآخر في كلامه. فقد اعتمد المصحّحون على الذوق المتحصِّل من اكتساب الاستعمالات القديمة المتواترة في الفصل بين ما اعتبروه صحيحا مقبولا وبين ما اعتبروه "خطأ". ولو كان الأمر متعلّقا بمبدأ لغويّ دقيق وصارم لما اختلف النحاة في شأنه. وذلك من مسوّغات اعتبار حركة التصحيح اللّغوي قاصرة عن تقديم حلول في إشكال تعدّد استعمال حروف الجرّ بدلالات متقاربة، حتّى إنّه يمكن وصفها

بالسذاجة" ممارسة المسائل اللّغويّة في مبحث تصحيح الأخطاء ممارسة معرفيّة بسيطة ساذجة" (المرجع السابق). وليس في ذلك مجانبة للصواب، دليلنا على ذلك أنّ المصحّحين لا ينطلقون من مناويل معرفيّة علميّة دقيقة لعمليّة التصحيح، بل يكتفون ب"قل " و"لا تقل" "أو يجوز "و"لا يجوز"...وغير ذلك من العبارات الدالة على الرفض وعدم القبول ببنية بعينها مرجعهم في ذلك مدونة بعينها باعتبارها مطابقة لشروط الفصاحة.

نعتبر أنّ توليد معنى جديد طريف بتعدية فعل بحرف جرّ غير معهود في الاستعمال يأخذ جزءا من المعنى المحصّل لذلك الحرف في وجوه الاستعمال القديمة؛ وذلك لضمان التواصل مجسدا في حدّ أدنى من توجيه المخاطب إلى مقصد المتكلّم؛ لكنّنا نرجّح أنّ القصد من استعمال حرف جرّ بعينه لا يمكن فهمه من المعنى المقنّن لحرف الجرّ ذاته: أوّلا لأنّ الحروف معانيها في غيرها وثانيا لأنّ النحاة قد استحال عليهم ضبط قائمة معان دقيقة مغلقة لهذه الحروف لأنّ معانيها مرتبطة بسياق القول، وبحكم أنّ السياق متعدّد غير ثابت ولا منته. وهذا يجعلنا نبحث عن فهم آلية اشتغال حرف الجرّ في التركيب العربي مرجّحين أنّ له اتصالا بمفهوم القصديّة اللسانيّة الحديثة.

سبق أن لاحظنا أنّ النحاة واللغويين والدارسين المحدثين قد تناولوا حروف الجرّ من زوايا مختلفة أهمّها التركيب والمعجم وحركة التصحيح، ويبدو لنا أنّ هذه الزوايا لا ينفصل بعضها عن بعض إلا إبستيمولوجيّا فهي في تقديرنا مجتمعة تفسّر نظام اشتغال حرف الجرّ في اللّسان العربي، وتساهم في بناء المعاني وتوجيه المقاصد. فإن كانت علاقة الحرف التركيبيّة بالاسم الذي يليه هي محور من محاور نظريّة العمل النحوي التي تفسّر جانبا من اشتغال اللّغة، فإنّ علاقته بالفعل الذي يسبقه لها تأثير مباشر على معناه في ذاته:" يبدو لنا معنى حرف الجرّ هو معنى تحدّده علاقته بالفعل الّذي يتعدّى به قبل أن توجّهه علاقة العمل التركيبي في الاسم الّذي يعمل فيه" (المرجع السابق). فحرف الجرّ مثلما يُكْسِب الاسم الذي يتعلّق به معنى مّا قد يكون الظرفية مع الحرف "في" أو "اللام" أو معنى التبعيض في "من"؛ فإنّه يسم الفعل الذي يسبقه دلاليا ويحوّر من معناه كما في:

- كذّبت الخبر.
- كذّبت بالخبر.

فالأصل في فعل كذّب أن يتعدّى بنفسه كما في المثال الأول باعتبار أن بنية " فعّل" من أبنية الجعليّة. لكن يفضّل المستعمل في المثال الثاني أن يعدّيه بالباء. ويبدو لنا أنّ ذلك مقصود لأداء معنى أقوى ممّا يعبّر عنه الاستعمال العاديّ لفعل "كذّب". وقد استمدّ المتكلّم من مخزونه اللغوي استعمالا للباء مشابها موجودا في فعل قول ضديد لـ" كذّب" هو " آمن بـ." وفي فعل آخر له نفس العمل هو " قال بـ. "؛ وأراد أن يكون للتكذيب قوّةُ الإيمان والاعتقاد، فعدّى الأوّل بما يتعدّى به الثاني. أرجع بعض النحاة العرب هذه الظاهرة إلى الحمل على النقيض وبصفة أعمّ إلى الحمل على المعنى (الحيزم، 2009). لكننا نراه اختلافا في الدقائق المعنويّة بين تعدية الفعل بحرف وتعديته بأكثر من حرف، واستعمال حرف مكان حرف آخر. ولا يمكن أن يكون ذلك اعتباطيّا في الظاهرة اللّغويّة، بل له دلالات مخصوصة تتعلّق في تقديرنا بقصديّة المرسل وهامش حريّته في الاستعمال.

والقول بمفهوم القصديّة في استعمال حرف الجرّ ينأى به عن مفهوم الاستعمال الخاطئ ويفسّر في تقديرنا الاختلافات بين النحاة في تفسير معنى حروف الجرّ.ويفسّر كذلك تعدّد وجوه استعمال حرف الجرّ في الواقع اللغوي، بل يسمه بالإبداع والطرافة. فلا شيء يمنع أن يعبّر متكلّمان اثنان عن معنيين متقاربين غير متماثلين باستعمالين مختلفين:

- انتصرت عليك.

- انتصرت بك.

يقرّ المثال الأوّل فقط بحالة الانتصار على الطرف الآخر، ويعتبر أنّ الحدث تمّ فوقيّا باعتبار أنّ المتكلّم في موقف قوّة. والمثال الثاني في تقديرنا يصوّر حالة الانتصار على الطرف الآخر لكن بمساعدته أيضا. يكون ذلك في سياق مخصوص وهو أن يخاطب صديق صديقه بهذا التركيب بعد محاورة مّا قد تكون في مجال علميّ مثلا، وقد تفوّق المتكلّم على المخاطب، ولكن هذا التفوّق في جزء منه يعود إلى الطرف المتحاور معه للدلالة على رفعة الحوار ورقيّه؛ حتّى لكأنهما انتصرا معا على وضعية فكرية كانا فيها مختلفين ثمّ أصبحا بعد حوارهما متّفقين. هذه الدقائق المعنوية لا يمكن أن نصل إليها إلاّ إذا أخذنا بعين الاعتبار السياق العام للخطاب. ومهما يكن من أمر، فالمهمّ بالنسبة إلينا هو أنّ المعنى المتحصّل من لفظ تعدية الفعل بحرف الجرّ إنّما هو نتاج شحن للعبارة بما قصد المتكلّم توجيه السامع إلى معناه. ولا يمكن أن يتشكّل في الخطاب لفظ منجز إلاّ بعد تبلوره مضمونا فكريّا مجرّدا في الذهن. وحرف الجرّ في المثال الثاني قد مكّن المنشئ من إظهار مقصده، للمخاطب فكان آلية من آليات القصد التي غيّرت من معنى الفعل الذي تعلّق به.

3.3. تعدية الفعل بحرف الجرّ بين إبداع المتلفّظ ونظاميّة القوانين اللغويّة المغلقة

لسنا ممن يعتقد أنّ القوانين اللّغوية دقيقة صارمة على الإطلاق إلاّ ما كان منها فرضيات تدخل ضمن الكوني المشترك بين مختلف الألسن أي ضمن ما يصطلح عليه بالمبادئ العامّة الكبرى المجرّدة les universaux du langage. ولا نعتقد أنّ بنية حروف الجرّ في اللّسان العربي من هذا الصنف رغم أنّها تتّسم بنسبة من التجريد. ونذهب إلى أنّ وقوع حروف الجرّ بين الشكّل الضارب في التجريد والبنية المتحقّقة هو ما يسمح بتجاذبها بين صرامة القانون وإبداع المتلفّظ. وقد يفسّر ذلك اختلاف النحاة في تعدية بعض الأفعال بحروف جرّ أو عدم تعديتها بها. فقد صرّح القدامى أنّ تعدية الفعل بحرف جرّ سببها قصور الفعل عن التعدية بذاته أي أنّه ضعيف يحتاج سندا ليصل إلى الاسم. فذهب ابن يعيش مثلا إلى اعتبار التعدية بحرف الجرّ ضربا من التقوية:" فهذه الحروف إنما دخلت الاسم للتعدية وإيصال الفعل إلى الاسم لأن الفعل قبلها لا يصل إلى الاسم بنفسه لأنها أفعال ضعفت عرفا واستعمالا فوجب تقويتها بالحروف الجارة" (ابن يعيش، د ت ، 7/ 65). هذه التقوية وإن قُيِّدت بإفادة المعنى، فهي تدفعنا إلى اعتبار قانون التعدية بحرف جرّ من عدمه أمرا خلافيّا غير متّفق عليه اتفاقا مطلقا وذلك يجعلنا نبحث عن المتحكم الأصلي في فعل التعدية هل هو القانون اللّغوي الصرف أم هو اختيار من منشئ الكلام؟

تفسير تعدية الفعل بحرف جرّ في التراث النحوي العربي بقصور أو ضعف في معاني بعض الأفعال مبنيّ على معطى دلاليّ. يعني ذلك أنّ المخزون الدلالي للفعل هو المتحكّم في اللزوم والتعدية. هذا المخزون الدلالي لا يمكن أن يكون غير تلك السمات المعنويّة الذهنيّة الفاعلة في المنجز اللّغوي. فالتعدية بحرف جرّ من عدمها صورة ذهنيّة في الأصل بحكم أنّ المتحكّم فيها معطى ذهني دلاليّ بالأساس. ذلك يعني أنّ السمات الدلالية متحكّمة في الأبنية النحويّة المنجزة. فالتعدية بهذا المفهوم تكون حركة بنيويّة دلاليّة بالأساس. وعليه ترتبط ارتباطا عضويّا بالمخزون الذهني لأنّها من نتاج مستعمل اللغة. ويبدو لنا أنّ هذا المخزون لا يمكن أن يكون جامدا غير قابل للتصرّف. فلو كان كذلك لتعذّر على المتكلّم أن ينتج اللامحدود من المحدود من أجل التعبير عمّا يستجدّ من حاجاته. والأرجح أن هذا المخزون هو رصيد ديناميكي متفاعل، للمتكلم قدرة على توظيفه والتصرف فيه بما يلائم مقامات التلفّظ. وهذا ممّا يدعونا إلى أن نعتبر التعدية عامة وبحروف الجرّ خاصّة مما يرجع، على الأقل في جزء كبير منه، إلى إبداع المتلفّظ. فدور النظام اللغوي، والتعدية بحروف الجرّ منه، هو ترجمة المعاني الموجودة في الأذهان ليتحقّق فعل التواصل. وقد ضُبطت عمليّة نقل هذه المعاني من الأذهان إلى الأعيان بالنظام اللّغوي حتّى لا تكون اللغة ظاهرة فوضويّة ينتفي

معها دور اللغة الأساسي وهو التواصل. ومن خصائص النظام أنه جماعيّ مجرّد ثابت خلافا للكلام الذي يتميّز بجانب كبير من الفردية والتغيّر بحسب المستعمل وملابسات التواصل ومقتضياته. فلا شيء يمنع – في تقديرنا- من وجود استعمالات جديدة تقتضي أبنية لغويّة جديدة بل لعلّ ذلك من أهمّ أدوار اللغة حتّى تضمن الاستمراريّة. لكنّ ما يتجدّد من هذه الأبنية ليس القانون العام المجرّد ولكن تفريعاته الأخرى الأقلّ تجريدا منه. وأبنية استعمالات حروف الجرّ نظنّها من هذا الصنف. وهي بذلك تخضع في جزء هام من استعمالاتها إلى إبداع المتكلّم. ونعتقد أنّ لجوء النحاة القدامى إلى مقولات "التضمين" و"أمّ الباب" و " الحمل على المعنى" وما جرى مجرى ذلك في تفسير حلول حرف جرّ موضع آخر في الكلام ممّا يؤكّد سلامة ما ذهبنا إليه من القول بالإبداع في اعتماد حرف الجرّ، فلو كان استعماله مقنّنا بقواعد دقيقة دقّة قوانين علم الحساب مثلا، لما أمكن تغيير حرف بآخر ولا تعدية الفعل مرّة به ومرّة بحرف غيره كما في:

- ذهبت منذ ساعة في القبيلة فسرتُ وجلتُ... ومع ذلك قد سرت فيهم حتّى كدت أن أخرج عن آخر بيوتهم (المسعدي،1992، ص55).

الأصل في فعل ذهب هو اللزوم وقد استعملته العرب متعدّيا بحرف الجرّ (الباحث العربي، د ت، مادة ذ ه ب) كما يلي:

- ذهب بالشيء أو بفلان (أزاله / اعتمده وسيلة للذهاب / أخذه معه)
- ذهب على وجهه (أفلت)
- ذهب إلى مكان (توجّه إليه)

في المثال الأول خرج محمود المسعدي عن صور التعدية المدوّنة في المعاجم فعدّى فعل " ذهب " بحرف الجرّ " في" الذي يدلّ عادة على الاستغراق في الظرفية. لكنّ الاسم الذي تعدّى إليه الفعل " القبيلة" لا يحمل معنى الظرفية على الحقيقة. ويبدو لنا أنّ المسعدي قد استلهم هذا الاستعمال من " ذهب في الأمر كل مذهب" بمعنى قلّبه من كلّ وجوهه؛ فأراد أن يعبّر عن معنى الاستغراق في استكشاف حالة القبيلة استكشافَ المستقصي لأوضاعها. وما يؤكّد ذلك هو استعماله لفعل " سار " مباشرة بعد ذلك متعدّيا بنفس الحرف " في" وهو كذلك استعمال إبداعيّ. ومن هنا نتبيّن أنّ الاستعمال الإبداعيّ في تعدية الفعل بحرف الجرّ لا يكون اعتباطيا صرفا وإنما يأخذ جزءا منه من نظام اللغة فليس حرف الجرّ خاليا تماما من المعنى وإنما هو حامل لشحنة دلالية يخزّنها مستعمل اللغة من مجموع السياقات التي استعملها فيه من سبقه. أمّا الجزء الإبداعيّ الطريف في هذا المجال فإنما يكمن في اهتداء المستعمل لبنية تركيبية طريفة قادرة على أداء المعنى الذي يقصده ويضمن وصول مضمون الرسالة إلى المتقبّل. ولا يتيسّر ذلك إلا بالحدّ التركيبيّ الدلالي الأدنى النظامي المشترك الجماعي الذي هو شرط التواصل بين أفراد المجموعة. وهكذا يُتوصّل إلى التعبير عن المعاني الطريفة بخلق توليفات تركيبيّة جديدة تبنى على استعمالات نظامية أبنيتها مستقرة في المعجم المخزن في ذاكرة المستعملين.

4.3. التعدية دلالة مجرّدة تتحقق بأبنية لفظية مختلفة منها حروف الجرّ

ميّز النحاة بوضوح بين أصناف من الأفعال منها أفعال العلاج وهي التي تُؤتى بالجارحة مثل قولك " ضرب زيد عمرا"، وأفعال الحالات الدالة على المؤقت من الصفات مثل " فرح الطفل"، وأفعال الصفات وهي الدالة على الأوصاف الثابتة نحو " كبُر زيد وكرُم عمرو ". فالصنف الأول منها تحمل دلالته الوضعيةُ معنى الوقوع أو التعدية لأنها من باب معالجة الشيء وما جرى مجراه.

أمّا صنفا الحالات والصفات فمكتفيان بفاعلهما لا يحتاجان إلى موضوع يُعالَج. ثمّ إنّ لنظام العربية آليات تسمح بتعدية اللازم. فالتعدية تحصل بالاشتقاق الصرفي بأبنية الجعلية على سبيل المثال نحو.

- خرج زيد / أخرج زيد عمرا.
- عطش الطفل / عطّش الإبلَ (زاد في ظمئها)

وتحصل التعدية كذلك بأبنية تركيبيّة من ذلك استعمال حرف الجرّ وقد رأينا أمثلة متعددة من ذلك. على أنّها ليست السبيل الوحيد فاستعمال أفعال الشكّ واليقين ممّا يحوّر المبتدأ والخبر فيجعلهما مفعولين ثانيهما هو الأول في المعنى، كما في قولك:

- الطقس ممطر / ظننتُ الطّقس ممطرا.
- أنت مسافر/ خلتك مسافرا.

"اعلم: أن ظننت وحسبت وعلمت وما كان نحوهنّ لا يجوز أن يتعدى واحد منها إلى أحد المفعولين دون الآخر. لا يجوز: ظننت زيدًا وتسكت، حتى تقول: "قائمًا" وما أشبه، من أجل أنه إنما يدخل على المبتدأ والخبر، فكما لا يكون المبتدأ بغير خبر، كذلك: "ظننت" لا تعمل في المفعول الأول بغير مفعول ثانٍ" (ابن السراج، 1985، 181/1). بناء على ذلك يمكن أن نذهب إلى أنّ السّمات المعنويّة للأفعال هي المتحكّم الأساسي في مقولة التعدية أيّا كانت الطريقة. ولكن ما يميّز التعدية بحرف الجرّ عن تعدية الفعل المتعدي بالوضع أنّ تلك السمات المعنويّة المتضمنة في أفعال العلاج على سبيل المثال تؤديّها البنية الدلالية للفعل. أمّا فيما يتعلّق بالتعدية بحرف الجرّ فإنّ دلالة تعدية الفعل تصبح مرتبطة ارتباطا وثيقا بحرف الجرّ الذي تعدّت به فيصبح" معنى حرف الجرّ الّذي يتعدّى به الفعل إنّما هو سمة من السّمات الدّلاليّة المكوّنة لدلالة الفعل" (بن حمودة،2018، ص 186). وهذا ما يحدث في الأمثلة التالية:

1. رغب عن الشيء. (تركه متعمّدا)
2. رغب في الشيء. (أراده)
3. رغب إلى الشيء. (مال إليه)
4. رغب بالشيء. (استعان به ليحصل مضمون الرغبة)

هذه الأبنية التركيبيّة الأربع تصوّر مدى تأثير حرف الجرّ في تغيير معنى الفعل، رغم أنّ الفعل في لفظه واحد. وهذا ما عنيناه بأنّ معنى حرف الجرّ يساهم في إعطاء الفعل سماته الدلالية. فالفعل في المثال الأوّل معناه ضديد لمعاني الأمثلة الثلاثة كما هو مبيّن أعلاه. أمّا المثالان الثاني والثالث فيعبّران عن درجتين مختلفتين من الرغبة. وقد افترضنا استعمالا رابعا لأنه لا شيء يمنع - في تقديرنا- من أن يولّد معنى آخر كما في المثال أعلاه. إن نظام اللغة يسمح بإيجاد هذه الصور التعبيرية المختلفة حتّى تيسّر للإنسان السبل التي تجعله قادرا على التواصل مع الخارج بشكل تقترب فيه العبارة من مطابقة ما اعتمل في ذهنه من تمثّل ذهنيّ للمقصد. ولعلّ تعريف النحاة الحرف بكونه كلمة معناها في غيرها مستقيم تماما في هذا السياق. فالحرف في حدّ ذاته خال تماما من الدلالة الخارجية المرجعية. ولولا سياقات الاستعمال التركيبية لما تمحّضت على سبيل المثال " في " لمعنى الظرفية. لكنّ هذه الحروف إذ تستدعيها المقاصد عبارةً عن المعاني تتّصل معانيها بسمات الفعل فينصهران ليتكوّن منهما معنى جديد طريف.

نعتقد أنّه بالإمكان التمثيل لمقولة التعدية للفعل ببنية تركيبيّة دلاليّة خالصة على درجة عليا من التجريد. هذه البنية عندما تُنزّل في الوقائع اللغويّة المطبّقة يمكن أن تظهر في شكلين تركيبين أقلّ تجريدا من المقولة العامّة هما: بنية الفعل المتعدّي بذاته التي تتطلّب شكلا تركيبيا منجزا معيّنا. والثاني هو ما تقوم به حروف الجرّ من دور تركيبيّ يصل صنفا مخصوصا من الأفعال بمفاعيلها المتمّمة ليكتمل المعنى.ونعتقدّ أنّ تعدّد الأبنية التركيبيّة وآلياتها في تعدية الأفعال من أقوى الأدلة على أنّ التعدية دلالة مجرّدة وثيقة الصلة بالمقاصد يستعملها المتكلّم لتوجيه السامع إليها. ولعلّ في تعدد الصور التي تتشكّل بها التعدية توسيعا على المتكلم السامع حتى تتيسّر له مسالك التعبير بصفة تسمح باستيعاب التجارب الخارجية الموجودة وتلك التي يمكن أن تحدث ما دام الإنسان يعبّر عن أغراضه باللغة.

4.خاتمة

لقد تقرّر في التفكير اللساني أنّ كلّ لفظ في اللّغة-سوى الأصوات- له دور دلاليّ. وقد يتغيّر هذا الدور ويتبدّل أو يعدّل في جزء منه إذا ما نظرنا إليه في مستوى تركّبه مع الألفاظ الأخرى داخل الخطاب. ونحن نعتقد أنّ ذلك يفيدنا في فهم اشتغال حروف الجرّ في اللّسان العربي وكيف تحوّر تعدية الفعل بها مقتضياته التركيبية ومعناه. ولن نتمكّن من فهم هذا الدور إلا بربطه بالجانب القصدي من اللغة. فالتعدية بحرف الجرّ من جهة التركيب لها مقتضيات تتعلّق بالعمل وما ينجرّ عنه من زيادة في المعمولات وتغيير في طبيعتها. لكن للتعدية كذلك دور دلاليّ متعلّق بتحوير معنى الفعل الّذي يسبقه في التركيب. بل هو دور أعمق من مجرّد تعدية فعل بحرف ينظر إليهما منفصلين على أساس علاقة المجاورة التركيبية. ذلك أنّهما يدخلان في علاقة تداخل وانصهار. فلا ينفكّ أحدهما عن الآخر إلا وقد انفكت عُرَى المعنى المقصود إبلاغه. فحصولنا على معنى طريف معبّر عن تجربة ينظر إليها المتكلّم من زاوية مخالفة للسابق ممكن بتعدية الفعل بحرف جرّ لم يجر على الألسن استعماله. وإنما ذاك من مواطن الإبداع في اللّغة بحكم أنّه يساعد المتلفّظ على تدقيق مقصده بالتجديد في اللفظ تجديدا يستفيد من الرصيد الجماعي المخزّن في الذاكرة، لكنّه لا يكتفي باسترجاعه بلفظه وإنما يعيد صياغته بحسب ما تمليه عليه وجهة نظره في معالجة الوقائع.

حاولنا في هذا البحث أن نزّل القصدية في سياق الدراسات اللغوية التقليدية ونظريات فلسفة اللغة، وبيّنا ما أثرت به التداولية دراسة اللغة بتأكيدها خاصّة اختلاف معطيات الاستعمال عن معطيات نظام اللغة. وأفدنا من ذلك في دراسة دور حروف الجرّ في أداء معنى محدث يخلقه المتكلّم خلقا جديدا مبدعا، يتجاوز في نسبة منه الأطر النظاميّة المعهودة في اللّغة. ودرسنا نظام اشتغال حروف الجرّ في اللّسان العربي. وركزّنا على أنّها بنية خاضعة لقصد الباثّ ودوره الفاعل في عمليّة الخطاب. فليس كلّ خروج عن المعهود من باب الخطأ المقتضي للتصويب بالضّرورة. بل هو تصرّف في ما يمكن أن يتصرّف فيه الفرد بالعودة إلى مبدأ الإبداع المتاح له في جهاز اللّغة. ونرى أنّ ذلك يقوّي من القدرة التفسيرية للمنجز اللّغوي ويوسّع في نجاعة الأنظمة اللّغويّة الواصفة.

الهوامش

[1]. نذكر من ذلك: رسالة الدكتوراه "رؤى حديثة في نظريّة الإعراب" بإشراف الأستاذ رفيق بن حمودة 2016. وبحث "سلطة الإعراب ودوره في تشكّل الأبنية الصرفيّة وتحقّق الصور الصوتيّة"، مجلة موارد 2014. وكذلك بحث "الدلالة العرفانيّة وتراجع دور التركيب/ الإعراب في إنتاج الكلام وتأويله"، مجلة اللّسانيات العربيّة.عدد2. 2015. وبحث "الشاهد النحوي بين الطبيعة والصناعة"، بحث مشترك مع الأستاذ رفيق بن حمودة. مجلّة اللّسانيات العربيّة.عدد6. 2018. وبحث "التمييز وعلاقته الحوسبيّة بالوظائف التركيبيّة المشابهة" (قيد النشر).

[2]. سورة النحل، الآية 9 .

[3].WIKIPEDIA. Intentionnalité. « Pour Franz Brentano, l'intentionnalité est le critère permettant de distinguer les « faits » psychiques des « faits » physiques : tout fait psychique est intentionnel, c'est-à-dire qu'il contient quelque chose à titre d'objet. »

[4] .Dedeurwaerdere. Tom. Le renversement cognitiviste et les théories de la conscience.2000 p 2 :« Les sciences cognitives opèrent un renversement entre la problématique de la conscience et la problématique de l'intentionnalité, en ce sens qu'en sciences cognitives la problématique de la conscience est devenue une problématique secondaire par rapport à l'étude des procédures intentionnelles dans les systèmes cognitivistes. »

[5]. Dedeurwaerdere. Tom. Le renversement cognitiviste et les théories de la conscience.2000 p.732. « La théorie de la conscience est devenue dépendante d'une théorie de l'intentionnalité. »

[6]." une norme qui guide notre interprétation des comportements interpersonnels."م.ن

[7]. Dreyfus Hubert. Agir, intentionnalité et être-au-monde 1993.p289 « …le terme « intentionnalité » définit le fait que des états mentaux (…) se réfèrent toujours à quelque chose (…) peu importe que cet objet existe ou non à l'extérieur de ces états mentaux. »

[8]. Panaccio, c. 1981. L'intentionnalité comme phénomène linguistique. p243. « On verra ...que les particularités sémantiques des énoncés décrivant des états intentionnels se laissent ramener à des états « intentionnels » (avec un « s »), ces énoncés à l'intérieur desquels il n'est pas toujours possible de remplacer une expression par une autre ayant la même dénotation sans changer la valeur de vérité de l'énoncé lui-même. ».

[9]. Stéphane. Robert. 2002 p 76 77 : « Les grammaires cognitives fournissent ainsi des bases nouvelles pour l'élaboration d'un modèle de traitement du langage fondé sur des mécanismes dynamiques de construction des représentations ; qui peuvent, au moins en partie, être reliés à des mécanismes cognitifs plus généraux. »

[10]. يمكن أن نشير في هذا الصدد إلى أثرين هامّين في الأدب التونسي لمحمود المسعدي وقد أبدع في استعمال حروف الجرّ فيهما استعمالات طريفة: "حدّث أبو هريرة قال" و"السدّ".

المراجع العربيّة

الباحث العربيّ. (د.ت). *مادة ذ هـ ب*. استرجع في تاريخ (يناير 22، 2021)، من الرابط التالي: .http://www.baheth.net/all.jsp?term

التهانوي، محمد علي بن علي. (ت. 1158 هـ، ط. 1984). *كشاف اصطلاحات الفنون* (ط1). دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول.

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني. (ت. 255 هـ، ط. 2004). *البيان والتبيين*. دار ومكتبة الهلال، بيروت.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. (ت. 471 هـ، 1992). *دلائل الإعجاز* (ط 3). تحقيق محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة؛ ودار المدني، جدة.

الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي. (ت. 816 هـ. د.ت). *التعريفات*. الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. (ت. 392هـ. د ت). *الخصائص* (ط 4). الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

الصّفاقسي، منانة حمزة. (2016). *رؤى حديثة في نظريّة الإعراب* (ط 1). كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان، وطبعة النصر، تونس.

بن حمودة، رفيق. (2004). *الوصفيّة مفهومها ونظامها في النّظريّات اللّسانيّة*. دار محمّد عليّ للنّشر، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة.

بن حمودة، رفيق. (2018). الخطأ ووهم التصويب في الفكر اللّغوي العربي المعاصر. في عقيل الشمري ومنصور ميغيري (محررين.)، *التصورات الشعبية عن اللغة العربية: مفاهيم وقضايا وحالات. سلسلة مباحث لغويّة*، ع31، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، ص ص 175-207.

الحيزم، وئام. (2009). *تأويل اللّفظ والحمل على المعنى* (ط 1). كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة (جامعة تونس)، تونس.

الخليل، أبو أحمد عبد الرحمان بن أحمد الفراهيدي. (ت. 170 هـ. د ت). *كتاب العين*. تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال، بيروت.

روبول، آن؛ وموشلار، جاك. (2010). القاموس الموسوعي للتداولية (ط 1). ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب. دار سيناترا-المركز الوطني للترجمة، تونس.

الزجّاجي، أبو القاسم. (ت.337 هـ. 1982). *الإيضاح في علل النحو* (ط1). تحقيق مازن المبارك. دار الفرقان للنشر والتوزيع، عَمان.

الزجّاجي، أبو القاسم. (ت.337 هـ. 1984). *حروف المعاني والصفات* (ط 1). تحقيق عليّ توفيق الحمد. مؤسسة الرسالة، بيروت.

الزّمخشري، أبو القاسم محمود. (ت 538 هـ. 1982). *المفصّل في العربيّة* (ط 2). دار الجيل، بيروت.

ابن السرّاج، أبو بكر محمّد. (ت 316 هـ .1985). *الأصول في النّحو* (ط 1). تحقيق عبد الحسين الفتلّي. مؤسّسة الرّسالة.

سيبويه، أبو بشر عمرو. (ت. 180 هـ. 1988). *الكتاب*. تحقيق عبد السلام محمّد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة.

سيرل، جون. (2018). *رؤية أشياء كما هي: نظريّة للإدراك*. ترجمة إيهاب عبد الرّحيم عليّ. سلسلة عالم المعرفة، ع.465، الكويت.

الشاوش، محمد؛ كمون، عبد الحميد؛ الشايب، محمد. (1986). *أهمّ المدارس اللسانية* (ط 1). المعهد القومي لعلوم التربية، تونس.

الشّريف، محمّد صلاح الدين. (2002). *الشّرط والإنشاء النحوي للكون: بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدّلالات*. كليّة الآداب بمنوبة، تونس.

الصفاقسي، منانة حمزة. (2015). *الدلالة العرفانيّة وتراجع دور التركيب/الإعراب في إنتاج الكلام وتأويله*. *مجلّة اللّسانيات العربيّة*. *2*، 86-117.

المسعدي، محمود. (1992). *السّدّ* (ط 1). دار الجنوب للنشر، تونس.

ابن منظور، جمال الدّين. (ت. 711هـ، ط. 2005). *لسان العرب* (ط 1). دار الكتب العلميّة، بيروت.

وشن، دلال. (2010). القصديّة من فلسفة العقل إلى فلسفة اللّغة. *مجلّة كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة محمّد خيضر، الجزائر*. 6، 63-105.

ابن يعيش، موفّق الدّين. (ت 643 هـ . د. ت). *شرح المفصّل* (ط 1). عالم الكتب بيروت.

المراجع الأجنبيّة

Célis, R. (2010). *Cours de philosophie générale*. Université de Lausanne.

Chomsky, N. (1977). *Réflexions sur le langage*. Editions Maspero. Paris.

Chomsky, N. (2006). Trois facteurs dans l'architecture du langage. *Nouveaux cahiers de linguistique française*, 27, 1–32.

Dedeurwaerdere, T. (2000). Le renversement cognitiviste et les théories de la conscience. *Revue Philosophique de Louvain*.98 ***(4)***, 732-760.

Dreyfus, H. (1993). Agir, intentionnalité et être-au-monde. Philosophiques, 20(2), 285–302. https://doi.org/10.7202/027227ar

Hjelmslev, L. (1935). *La catégorie des cas : étude de grammaire générale*. Première partie. Universitetsforlaget.

Moeschler, J. (2018). L'implicite et l'interface sémantique-pragmatique: où passe la frontière? Corela HS-25, Les procédés implicites pris dans l'interface sémantique-pragmatique. DOI: 10.4000/corela.6571.

Pacherie, E.(1995). Théorie représentationnelle de l'intentionnalité perceptive et Leibhaftigkeit de l'objet dans la perception. *archives de philosophie,* 58, 1-12.

Panaccio, C. (1981). L'intentionnalité comme phénomène linguistique.Philosophiques, 8(2), 239–257. https://doi.org/10.7202/203168ar

Wikipedia. (n.d). Intentionnalité. Retrieved June 22, 2021, from https://fr.wikipedia.org/wiki/Intentionnalit%C3%A9

Stéphane R. (2002). Modèles linguistiques de production. In Michel Fayol (ed.) *Traité des Sciences Cognitives. Volume " Production du langage "*, Hermès, pp.66-86.

The Stanford Encyclopedia of Philosophy. (2013). Phenomenology. Retrieved January 22, 2021, from https://plato.stanford.edu/entries/phenomenology/

Tiberghien Guy, & Tiberghien Guy. (2002). *Dictionnaire des sciences cognitives*. Armand Colin.

بيانات الباحث

منانة حمزة الصفاقسي، أستاذ مساعد في اللّغة العربيّة بقسم العربيّة كليّة الآداب القيروان، جامعة القيروان بتونس. حاصلة على درجة الدكتوراه في اللّغة العربيّة واللّسانيات من جامعة القيروان عام2013. تدور اهتماماتها البحثيّة حول التركيب والدلالة..

AUTHOR BIODATA

Menana Hamza Sfaxi is an assistant professor of Arabic language in faculty of letters and human sciences Kairouan in the department of Arabic, College of Kairoun university. She received her PhD in Arabic language and linguistics from Kairouan University in 2013. Her research interests include syntax and semantics.

معرف أوركيد (ORCID): 0000-0002-2679-9186

Email: manno.sfaxi@yahoo.fr